غزوة الأحـزاب

في شوال سنة ٥ هـ

وقعت غزوة الأحـزاب في شوال من السنة الخامسة للهجرة، وسُـميت بـ «غزوة الخندق» لأجل الخندق الذي حُفر حول المدينة بأمر النبي ﷺ.

وأما تسميتها بـ «غزوة الأحزاب» فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم: قريش، وغطفان، وآخرون من قبائل العرب، واليهود ومَن تبعهم.

سبب الغزوة:

شرع اليهود - من جديد - في التآمر على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها، ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة.

خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ منهم: سلاَّم بن أبي الحقيق النَّضَري، وحُيَيٌّ بن أخطب النَّضَري، وكنانه بن أبي الحقيق النَّضَري، وهَوْذَة بن قيس الوائلي، وأبو عمَّار الوائلي، في نَفَرٍ من بني النَّضير، ونَفَرٍ من بني وائل، وهم الذين حزَّبُوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتَّى قدموا علي قريش مكة، فدعوهم إلي حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم حتَّى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعِلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أَفَدِينُنا خَيْرٌ أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا**

﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾(١).

فلما قالوا ذلك لقريش سَرَّهم ونَشَطُوا لَمَا دَعَوْهم إليه من حَرْب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتَّعَدوا له.

ثُمَّ خرج أولئك النَّفَرُ من يهود حتَّى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدَعَوْهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه.

الرسول ﷺ يُشارك في حفر الخندق:

لَمَّا سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر، استشار أصحابه فيما يجب عمله، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول المدينة يُقاتلون من خلفه فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق، وشارك فيه بنفسه؛ ترغيبًا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجالٌ من المنافقين، وجعلوا يستترون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجه التي لابُدَّ له منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللُّحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجَتَه رجع إلى ما كان فيه من عمله؛ رغبة في الخير واحتسابًا له.

فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

---

(١) النساء: ٥١ - ٥٤.

(١) النور: ٦٢.

نزلت هذه الآيات فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

ثم قال الله تعالى، يعنى في المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل، ويذهبون بغير إذن من النبي ﷺ:

﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

فُلول الشرك تطوق المدينة:

قال ابن إسحاق:

لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتَّى نزلت بمجتمع الأسيال من رومه، بين الجُرْف[2] وزغابة، في عشره آلاف من أحابيشهم ومَن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة.

وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتَّى نزلوا بذَنَب نَقْمَى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتَّى جعلوا ظهورَهم إلى سَلْع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكَرَه، والخندق بينه وبين القوم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابنَ أُمِّ مكتوم.

وقال ابن إسحاق: وأمَرَ بالذراري والنساء فجُعِلُوا في الآطام، أي الحُصون.

---

(١) النور: ٦٣.

(٢) الجُرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

الرسول ﷺ يرسل أصحابه لاستطلاع الأمر:

لمَّا انتهى خبر الأحزاب وتجمعهم إلى رسول الله ﷺ بادر إلى التحقق منه، فأرسل وفداً من الصحابة فيهم سعد بن مُعَاذ، وأمرهم إن وجدوا الخبر صحيحاً أن يُلحنوا له، أي يقولون قولاً يعرف من الرسولُ ﷺ ما وقع ولا يعرفه الناس، وتلك حكمة الرسول ﷺ

قال الرسول ﷺ لمن بعثهم إلى قُرَيْظَة: «انطلقوا حتَّى تنظروا أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحْنَاً أعرفه[1] ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس».

فخرجوا حتَّى أتَوْهُم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبينه ولا عقد، فشاتمهم سعد بن مُعَاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حِدَّة.

فقال له سعد بن عُباده: دَعْ عنك مَشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثُمَّ أقبل السعدان ومَن معهما إلى رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، ثُمَّ قالوا: عَضَلٌ والقارة، أي كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه.

فقال رسول اله ﷺ: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين».

فعظم عند ذلك البلاء، واشتد الحُزن، وأتاهم عدوُّهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتَّى ظنَّ المؤمنون كُلَّ ظَنٍّ، ونَجَم النفاق من بعض المنافقين.

مناورات على شفا الخندق:

أقبل فوارس من قريش منهم عمرو بن عَبْدُ وُدٍّ، أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها.

---

(١) اللَّحْن: اللُّغز، وهو أنه يخالف ظاهر الكلام معناه.

ثُمَّ تَيَمَّمُوا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجَالَتْ بهم خيلُهم في السَّبخة بين الخندق وسَلْع، ودعوا إلى البِرَاز

فانتدب لعمرو علىٌّ بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان عمرو بن عَبْدُ وُدٍّ قد قاتل يوم بَدْر حتَّى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أُحُد

فلما كان يوم الخندق خرج، وقد جعل لنفسه علامة يُعرَف بها؛ ليُرَى مكانُه، فلما وقف هو وخَيْلُه قال: مَن يُبارز؟

فبَرَزَ له علىٌّ بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا عمرو، إنك قد كنتَ عاهدتَ الله ألا يدعوك رجلٌ من قريش إلى إحدى خَلَّتين إلا أخذتَها منه.

قال له: أَجَلَ.

قال له علىٌّ: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام.

قال: لا حاجة لي بذلك.

قال: فإني أدعوك إلى النِّزَال.

فقال: لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أُحِبُّ أن أقتلك.

قال له علىٌّ: لكنى والله أُحبُّ أن أقتلك.

فحمى عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره، وضرب وجهه، ثُمَّ أقبل عَلَى عَلِيٍّ، فتنازلا وتجاولا، فقَتَلَه علىٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخرجت خيلُهم مُنهزمة حتَّى اقتحمت من الخندق هاربةً.

*****

هذا وقد حاول المشركون - في بعض الأيام - محاولة بليغة لاقتحام الخندق، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة، ورشقوهم بالنبل، وناضلوهم أشد النضال.

وفي هذه المراماة قُتل رجال من الجيشين، يعدون على الأصابع: ستة من المسلمين، وعشرة من المشركين.

وقد كانت عائشة - رضى الله عنها - في حصن بنى حارثة يوم الخندق، وكان من أحْرَز حُصون المدينة، وكانت أُمُّ سعد بن مُعَاذ معها في الحصن، فقالت عائشة - وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب -:

فَمَرَّ سعدُ وعليه درع له مُقَلَّصَة[1] قد خرجت منها ذراعُه كُلُّها، وفي يده حربتُه يَرْقُد بها: أي يُسرع - ويقول:

لبِّث قليلاً يَشْهد الهيجا جَمل لا بأس بالموت إذا حَان الأجَل

فقالت له أُمُّه: الحَق أي بنى، فقد والله أخَّرت.

قالت عائشة - رضى الله عنها -: فقلت لها:

يا أُمَّ سعد، والله لَوَدَدْت أن درع سعد كانت أَسْبغ مما هي[2].

قالت: وخِفْت عليه حيث أصاب السهم منه، فَرُمِىَ سعد بن مُعَاذ بسهم، فقطع منه الأكحل[3] رماه حبَّانُ بن قيس بن العَرِقة، فلما أصابه، قال: خُذها منى وأنا ابن العَرِقة.

فقال له سعد: عَرَّق الله وجهَك في النار. اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أحبّ إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولَك وكذَّبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنتَ قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتَّى تقرَّ عيني من بنى قُرَيْظَة.

---

(١) مُقَلَّصَة: أي قصيرة.

(٢) أسبغ مما هي: أي أكمل وأطول.

(٣) الأكحل: عرق في الذراع.

وقد كان من تقدير الله أن أبقى سعداً وهو جريح، ليحكم فيهم حُكْماً قال الرسول ﷺ عنه: «لقد حَكَمَت فيهم بحُكم الله من فوق سبع سماوات».

مشاورة النبي ﷺ السَّعدين:

لَمَّا اشتدَّ على الناس البلاءُ بعث رسولُ الله ﷺ إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بَدْر، وإلى الحارث بن عوف بن أبى الحارثة المري - وهما قائدا غطفان - فجرى بينه وبينهما الصلح على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمَن معهما عنه وعن أصحابه، وكتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المُراوضة في ذلك.

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن مُعَاذ وسعد بن عُباده، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له:

يا رسول الله، أمراً نُحبُّه فنصنَعَه، أم شيئاً أمَرَك الله به لابُدَّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال: بل شئ أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رَمَتْكُم عن قَوْس واحدة وكَالَبُوكُم من كُلِّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما.

فقال له سعد بن مُعَاذ:

يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبدالله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرةً إلا قِرَى أو بيعاً، أَفَحِين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزَّنا بك وبه، نُعطيهم أموالنا؟!! والله، مالنا بهذا من حاجة، والله لا نُعطيهم إلا السيف حتَّى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك.

فتناول سعد بن مُعَاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثُمَّ قال:

ليجهروا علينا، وكان النساء والأطفال في حصون يُخشَى عليهم من غدر الذين غدروا، والمسلمون مشغولون بمواجهة الأحزاب، وهم في الوقت نفسه لا يغيب ما قد يقع بأطفالهم ونسائهم.

نعيم بن مسعود وحيلته الناجحة:

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمراً من عنده خذل به العدو وهزم جموعَهم وفَلَّ حدَّهم - فكان هيَّأ من ذلك: أن رجلاً من غطفان يُقال له نُعَيم بن مسعود بن عامر رضي الله عنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني قد أسملتُ، فمُرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت رجلٌ واحدٌ، فخذِّل عنا ما استطعتَ، فإن الحرب خدْعة.

فذهب من فَوره ذلك إلى بنى قُرَيْظَة - وكان عشيراً لهم في الجاهلية - فدخل عليهم وهم لا يعلمون إسلامَه، فقال:

يا بنى قُرَيْظَة، إنكم قد حاربتم محمداً، وإن قريشاً إن أصابوا فرصةً انتهزوها، وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً فانْتَقَمَ منكم.

قالوا: فما العمل يا نُعَيْم؟

قال: لا تُقاتلوا معهم حتَّى يُعطوكم رهائن.

قالوا: لقد أشَرْتَ بالرأي.

ثم مضى على وجهه إلى قريش فقال لهم: تعلمون وُدِّي لكم، ونصحي لكم

قالوا: نعم.

قال: إن يهودَ قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسَلُوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثُمَّ يُمالئُونَه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم.

ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان ليلةُ السبت من شوال، بعثوا إلى اليهود: إنَّا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاعُ والخُفُّ[١] فانهضوا بنا حتَّى نُناجز محمدًا

فأرسل إليهم اليهودُ: إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب مَنْ قبلَنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنَّا لا نقاتل معكم حتَّى تبعثوا إلينا رهائن.

فلما جاءتهم رسلهم بذلك، قالت: قريش: صدقكم والله نُعَيم، فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتَّى نُناجز محمداً.

فقالت قُرَيْظَة: صَدَقَكُم والله نُعَيم.

فتخاذل الفريقان، وأرسل الله على المشركين جنداً من الريح فجعلت تُقَوِّض خيامَهم، ولا تَدَع لهم قِدْرَاً إلا كَفَأَتْها، ولا طُنُبًا[٢] إلا قلعته، ولا يَقِرُّ لهم قَرَارٌ، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرُّعْبَ والخوف.

وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيئوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رَدَّ الله عدوَّه بغيظه، لم ينالوا خيرا، وكفاه الله قتالَهم، فصَدَق وعدَه، وأعزَّ جُنْدَه، ونَصَرَ عبْدَه، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَه.

فدخل ﷺ المدينة، ووضع السلاح، فجاءه جبريل عليه السلام وهو يغتسل في بيت أُمِّ سَلَمَة، فقال: أوَضَعْتُم السلاحَ؟ إن الملائكة لم تضع بعد أسلحَتَها. أنْهَضْ إلى غزوة بنى قُرَيْظَة.

فنادى رسول الله ﷺ «مَنْ كان سامعاً مُطيعاً، فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلى في بنى قُرَيْظَة».

---

(١) الخُفُّ: واحد أخفاف البعير، والكُراع: بالضم في البقر والغنم وفي المَثَل: «أُعْطِيَ العبدُ كُراعاً فطلب ذراعاً» لأن الذراع في اليد وهو أفضل من الكُراع في الرجل.

(٢) الطُّنُب: بضمتين حَبْل الخباء.

فخرج المسلمون سِراعاً، وكان من أمره وأمر بنى قُرَيْظَة ما قدَّمناه، واستُشهد يوم الخندق ويوم قُرَيْظَة نحو عشرةٌ من المسلمين.

ولمَّا انصرف أهلُ الخندق عن الخندق، قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» فلم تغزُهم قريش بعد ذلك، وكان هو الذي يغزُوها، حتَّى فتح الله عليه مكة.

ما ظهر أثناء الحفر من المعجزات:

قال ابن إسحاق:

وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني فيها من الله عِبْرة في تصديق رسول الله ﷺ وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون، منها:

* أمْرُ الصخرة:

فكان مما بلغني أن جابر بن عبدالله كان يُحَدِّث: أنه اشتدَّت عليهم في بعض الخندق كُدْيَةٌ[1] فَشَكَوْها إلى رسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء، فتَفلَ فيه، ثُمَّ دعا بما شاء أن يدعو به، ثُمَّ نضح ذلك الماء على تلك الكُدْيَة، فيقول مَنْ حَضَرَها: فوالذي بعثه بالحق نبيًا، لانْهَالَت - أي تفتت - حتَّى عادت كالثيب لا تَرُدُّ فأسا ولا مسحاةً.

* البركة في تَمْر ابنة بشير:

قال ابن إسحاق: وحدثني ابنُ مينا أنه حُدِّث أن ابنةً لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير قالت:

دعتني أُمِّي عَمْرةُ بنت رواحة، فاعطتني حِفْنَةً من تَمْر في ثوبي، ثُمَّ قالت: أي بُنَيَّة، اذهبي إلى أبيك وخالك عبدالله بن رواحة بغدائهما.

---

(١) الكُدْيَةُ: القطعة الصلبة من الأرض.

قالت: فأخذتها، فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا التمس أبى وخالي، فقال: تعالَىْ يا بُنَيَّة، ما هذا معك؟

قالت: فقلت: يا رسول الله، هذا تَمْرٌ، بعثتني به أُمَّي إلى أبى بشير بن سعد وخالي عبدالله بن رواحة يتغذَّيَانه.

قال: هَاتيه.

قالت: فصببته في كفي رسول الله ﷺ، فما ملأتْهُمَا، ثُمَّ أمر بثوب فبُسط له، ثُمَّ دَحَا بالتمر عليه، فتبدَّد فوق الثوب، ثُمَّ قال لإنسان عنده: «اصرُخ في أهل الخندق أن هَلُمَّ إلى الغداء».

فاجتمع أهلُ الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتَّى صَدَرَ أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب.

* **البركة في طعام جابر:**

قال ابن إسحاق: وحدثني سعيد بن مينا، عن جابر بن عبدالله قال:

عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، فكان عندي شُوَيْهة - غير جِدّ سمينة[1].

قال: فقلت: لو صنعناها لرسول الله ﷺ، قال: فأمرت امرأتي فطحَنَتْ لنا شيئاً من شعير، فصنعَتْ لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاة، فشويناها لرسول الله ﷺ.

قال: فلمَّا أمسينا، وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق - قال: - وكنَّا نعمل نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا - قال: قلت:

---

(١) أي غير كاملة السَّمن.

يا رسول الله، إني قد صنعت لك شُوَيْهةً كانت عندنا، وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير، فَأُحِبُّ أن تنصرف معي إلى منزلي، وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله ﷺ وحده.

قال: فلما أن قلت له ذلك، قال: نعم.

ثم أمر صارخاً: أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبدالله

قال: قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال: فأقبل رسول الله ﷺ وأقبل الناس معه.

قال: فجلس وأخرجناها إليه

قال: فبرك وسمَّى الله، ثُمَّ أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قومٌ قاموا وجاء ناسٌ، حتَّى صدر أهل الخندق عنها

* **ما أرى الله رسولَه من الفتح:**

قال ابن إسحاق: وحُدثت عن سلمان الفارسي أنه قال:

ضَرَبتُ في ناحية فغَلُظَت علىَّ صخرةٌ، ورسول الله ﷺ قريب منى، فلما رآني أضرب، ورأى شدَّة المكان علىَّ، نزل فأخذ المِعْوَل من يدي، فضرب به ضربة لَمَعَت تحت المعول بَرْقَةٌ، قال: ثُمَّ ضرب به ضربةً أخرى، فلمعت تحته بَرْقَةٌ أخرى، قال: ثُمَّ ضرب به الثالثة فلمعت تحته بَرْقَةٌ أخرى.

قال: قلت: بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت لَمَعَ تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟

قال: قلت: نعم.

قال: أمَّا الأولى فإن الله فتح علىَّ بها اليَمَن.

وأما الثانية: فإن الله فتح علىَّ بها الشام والمغرب.

وأما الثالثة: فإن الله فتح علىَّ بها المشرق.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتَّهم، عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فُتِحَتْ هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده:

«افتتحوا ما بدَا لكم، فوالذي نفس أبى هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينه، ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله - سبحانه - محمداً مفاتيحَها قبل ذلك»[1].

حديث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب:

يجب أن يُستَحْضَر القرآن الكريم، كما تُستَحْضَر السُّنَّة النبويَّة المُطَهَّرَة في دراسة الوقائع والأحداث التي وقعت في حياة الرسول ﷺ؛ ليجدَ الناسُ هدايتَهم من كتاب الله وبيانه من السنة المُطَهَّرَة.

وما من شئ قد وقع في غزوة الأحزاب إلا وفيه قرآن يُتْلَى، وفيه حضور الرسول ﷺ.

ومن هنا تكون الإفادة من القرآن والسنة في وقائع وأحداث، ولا تكون بعيداً عن حُسْن تدبُّر وصِدْق اتباع، فإن جميع ما يقع في هذا الكون - أرضه وسمائه - ليس بمَعْزل عن مشيئة وإرادة يجب أن يُذكَر بها الله ولا يُنْسَى.

كما يجب ألا يكون علاج ما يقع مُنفصلاً عمَّا يحمله القرآن الكريم من هداية وتبصرة، أو تدعو إليه السنة المُطَهَّرَة من صِدْق ورُشْد وإخلاص في رؤية النتائج والعواقب.

ومن ذلك نعرف كيف يُمتَحَن الإنسان بالوقائع والشدائد، وكيف تكون العاقبة سُوءاً لَمَنْ أساء، وخيراً لَمن أتَّقى وأحْسَنَ.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/٩٢.

ونرى الأخذ بالأسباب لا ينفصل عن الرُّشْد في اليقين والإيمان، فإن الأخذ بالأسباب - كما أمر الله - طاعةٌ، والتقصيرَ في أمره معصيةٌ، والركونَ إليه دون استحضارٍ ويقين لعِلْم الله وقُدرته ومشيئة، وإسناد الفَضْل إليه وحدَه دون سُواه في تأييد ونَصْرٍ ومحاسبة النفس على التقصير أو الإهمال عند تأخُّر النَّصْر أو وقوع الهزائم، والتوكل الذي لا تواكل فيه وهو الذي يصح به الأخذ بالأسباب، يجب أن يقوم في النفس دائمًا ولا بغيب.

ودون ذلك يقع الإنسان في مَضْيَعَةٍ ومفسدة ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾(١).

القرآن الكريم وما يُستفاد منه في مواجهه جميع الطوائف التي تكيد للإسلام، وما يجب أن يكون المسلمون عليه في رُشْد وثَبَات.

أولاً: الآيات من سورة النساء من [١ - ٥٥]

فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا**﴾(٢).

والآيات - مع أنها قد أُنزلت في ناس بعيهم، ولكن ما ذُكر من صفاتهم يدعو إلى الاحتراز من الاتصاف بشيء من هذه الصفات:

١ - الكذب، ومُعاداة الحق عن معرفة وقَصْد.

---

(١) الشورى: ٣٠.

(٢) النساء: ٥١ - ٥٥.

٢ – الحسد، والإصرار على الجحود والكَيْد.

٣ – الغفلة السَّادرة عن حكمة الله في امتحان الخَلْق فيما أعطاهم وفَاوَتَ بينهم.

٤ – الشعور بل السرور بأن الله لم يجعل لأولئك الذين يحسدون الناس سبيلاً لإعطاء الناس شيئاً لأنهم لا يملكون.

٥ – من أعظم النعم التي يجب الاعتصام بها «الكتاب والحكمة».

٦ – تنوُّع الناس في قَبول ما جاء من الحق، فمنهم من آمن به ومنهم من صَدَّ عنه.

٧ – العاقبة وحدها هي التي يتحدَّد بها الفوزُ أو الخسران.

٨ – استحضار الجزاء على ما يكون من مقاصد وأعمال، وأخطرها الجُحود والنُّكران، والكذب على الله بعد بيان وإعذار.

٩ – وكفي بنقمة الله على مَنْ نقض عهداً أو قصد غدراً أو طلب فوزاً ونصراً بأعمال استوجَبَت لعنًا، ويرى الناسُ عاقبتَها فيما وقع من نقمة وسُوء مصير.

١٠ – استحضار الجنة والنار – وهما لا يستويان – ضروري لإحسان الناس وصلاحهم.

كُلُّ ذلك وغيرُه يُمكن أن يُستفاد ممَّا وقع من أولئك الذين بدأوا التحريض، وجمعوا الأحلاف لغزو المدينة المُنَوَّرَة، وحصار المسلمين فيها، والكيد للرسول الكريم الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

ثانياً: الآيات التي أُنزلت في غزوة الأحزاب، والتي يُقال لها غزوة الخندق، وما جاء – أيضًا – في غزوة بنى قُرَيْظَة التي كان لهم هم وبنو النَّضير شأنٌ أيُّ شأن في تحريض قريش.

فقد جاء نَفَرٌ من رؤساء اليهود، وقالوا لقريش: إنا سنكون معكم حتَّى نستأصله ونُخرجه من المدينة، فنشطت قريشُ، وأخذت تستعدُّ للحرب، وتدعو أحلافَها.

ثم جعل اليهود يُثيرون القبائل لهذه الحرب، فاستجابت لهم قبائلُ كثيرة، وخرجوا في جيش كثيف مقداره عشره آلاف مقاتل.

أما اليهود فقد استعدُّوا في داخل المدينة ليأخذوا النبيَّ والمسلمين من ظهورهم إذا التحم القتال بينهم وبين قريش.

وقد أُنزلت الآيات من سورة الأحزاب من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾(١).

إلى قوله تعالى: ﴿**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾(٢).

أُنزلت هذه الآيات لتُقدِّم عظتها وتبصرتها على مَرِّ الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، في سورة مَدَنِيَّة، لتُرينا ما وقع من وقائع وما كان من نتائج في المدينة المُنَوَّرَة؛ ليعرف الناس أنَّ مَن حفظه الله لا يُضَيَّع، وأن المكر السيئ - مهما بلغ - لا يحيق إلا بأهله.

فتعالوا بنا لنَسْتَبْصر بالآيات، ونرى دَلالتها في الوقائع والأحداث.

أولاً: بدأت الآيات بالتذكير بنعمة الله، تذكير المؤمنين حيث كانوا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن هذا النداء ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ لا يُقصَدُ به الذين رَأَوْا هذه الوقائع أو عاشوا في عصرها فحسب، وإنما يُقصد به أهلُ الإيمان حيث كانوا، وفي هذا النداء تشريف وتكليف ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

---

(١) الأحزاب: ٩ .

(٢) الأحزاب: ٢٧.

ومن أجل ذلك حُفِظَ القرآن لتُتَدَبَّرَ آياتُه وليتذكر أولوا الألباب.

ومن أَحْسَنَ التدبُّر عرف أن كل نعمة أجراها الله على أسلافنا لنصر دينه، هي نعمة علينا نُطَالَب بتدبُّرها وشُكرها.

ثانياً: لقد أُجملت هذه الآية، وكان في إجمالها إفادة بما يجب أن يستحضره الناس في كُلِّ شأن ولا يغيب.

من هنا وجب تذكير أهل الإيمان به؛ لأن في تحصيله غنىً للنفس وحِمَىً لها من أسباب الهوان والضعف والنفاق والشرك، ودعوةً لها أن تعتصم بالله ولا تركن لشيء سُواه.

عندئذ ينَالُ هؤلاء ما أخبر الله به ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[1].

فهناك جنود قد جاءوا إلى المسلمين يريدون حربَهم والقضاءَ عليهم، فدفعهم الله عنهم، وتلقَّاهم بجنود من عنده.

وهذه نعمة الله على المؤمنين تستوجب الشُكر ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**﴾.

إن الريح التي أرسلها الله جندٌ من جنود الله التي رآها الناس عياناً، وأدرك أثرَها المؤمنون خيراً لأنفسهم وكَيْداً لأعدائهم.

وهناك جنودٌ أخرى لا يراها أحدٌ، وهذه الجنود غير المَرْئيَّة كثيرة لا حَصْرَ لها ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾ دلاله لها تأثيرها في العمل والاعتقاد والرُّكون إلى الله بحُسْن التوكل عليه والخشية منه.

---

(١) الحج: ٣٨.

(٢) المدثر: ٣١.

وقد جاء ختام الآية بعد إخبار عمَّا وقع مما لم يكن يعلمه أحد إلا الله؛ فإن الجنود الخفيَّة التي أحدثَتْ هذه الآثار لم يكن يعلم أمرَها إلا من أرسلها ليُنصَر بها من يريد الله أن ينصره، ويُخْذَلَ بها من يريد الله أن يخذله.

وهذه الجنود - وما أكثرها - مأمورةٌ بأمر خالقها، فما على الناس إلا أن يُخلصوا القَصْدَ لله، وأن يكونوا في السَّراء والضَّراء حيث يحبُّ ورسولُه ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فما يقع في دُنيَا الناس من أحداث، وما يكون بينهم من تداول يجب أن يعرف المؤمنون من أنفسهم أين موقعَهم من مرضات الله، وأين هم من الأخذ بأسباب نُصْرته ورضاه، وأن لا تَشْغَلهم الأحداثُ عن مُناصرة الحق ونُصرته من أنفسهم، قبل أن يطلبوا ذلك من أعدائهم، وأن يُوقنوا أنهم لا يستطيعون أن ينصروا الله في معركة حتَّى ينصروه في أنفسهم، وهم إذا لم ينتصروا بفضلهم لم يَغلبوا أحداً بقوَّتهم.

إن هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ نرى دلالتها في كُلِّ ما أحاط بالمسلمين من شدَّة وبلاء، وأن الذين أحاطوا بهم، ورغِبُوا في استئصالهم قد ردَّهم الله في كُلِّ موقف لم ينالوا خيراً، وجزى الله الصادقين بصدقهم، وكفاهم قتال عدوهم.

وتعالوا بنا لنرى كيف كانت الإحاطة بالمؤمنين، لنعرف أن التذكير بالنعمة والشعور بها لم يكن ليُتَخيَّل، وإنما كان واقعاً في كُلِّ لحظة، يراه المؤمنون ويحيونه برُشد وثَبَات.

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[2].

---

(١) يوسف: ٢١.

(٢) الأحزاب: ١٠، ١١.

هنا نرى الآيات تُفَصِّل ما أجملته الآية الأولى من أحداث هذه الغزوة، فهؤلاء الجنود الذين جاءوا إلى المسلمين قد جاءوهم من فوقهم من نَجْد، ومن أسفل منهم من تِهامة، وهذا يعنى أنهم قد أطبقوا على المسلمين من كُلِّ جهة، فتمكَّنوا منهم، وسدَّدوا منافذ النجاة عليهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ بيانٌ للحال التي استولَتْ على المسلمين من هذا الخطر الزاحف

ولا ننسى زَيَغَانَ الأبصار في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ فإن زَيَغَانَ الأبصار دَلالةٌ على الكَرْب الذي دخل على المسلمين، حتَّى غابت وجوه الرأي عنهم، فلم يتبيَّنوا ماذا يأخذون أو يَدَعُون من أمرهم، وقد بلغ الكَرْبُ مبلغاً جعل القلوب - في خَفَقَاتها - تبلغ الحناجر ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ هكذا وتظنون بالفعل الدَّال على الاستقبال دليلٌ على تجدُّد أحوال الكرب ودوامها بلا انقطاع، مما جعل المؤمنين يترددون بين اليأس والرجاء، وبين الشك واليقين، مع اختلاف ذلك من شخص إلى آخر، فهناك من المؤمنين مَنْ هُم على يقين من أمر ربِّهم، فلا يظنون إلا خيراً، وأن الله مُنْجز لهم ما وعدهم في عدوهم، وهناك من المؤمنين من لم يعصمهم إيمانُهم من ظنون السُّوء، فظنوا بالله غير الحق.

وتكفي هنا الإشارة إلى الموقف الذي واجه فيه المؤمنون الأحزاب، إنه موقف امتحان في الإيمان، موقف ابتلاء شديد، لا يصبر عليه، ولا يخلص منه - ناجيًا بدينه، سليمًا في اعتقاده، مُعَافىً في إيمانه - إلا من اطمأن قلبُه بالإيمان، وعَرَف ما لله في عباده من سُنَنٍ وابتلاء.

وفي قوله ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ بيانٌ لما في هذا الابتلاء من شدَّة هَزَّت كِيَان المسلمين هزَّاً عنيفاً، ولكنه ابتلاء تتميَّز به الصفوف وكَمْ لله من مِنَّةٍ في طَيِّ المكاره، وكم في العقبات من عطاء لا تحقّقه الرغبات في الوثبات، فإن

العقبات التي تكون أمام الماء تزيد في مَدِّه، وتجعله يُعطى عطاءه من نَمَاءٍ ونُور بإذن ربِّه.

فمن ذا الذي يستطيع أن يَفْرز الصفوف، ويُمحِّص النفوس غير المداولة التي سنَّها الله، ليَعلم الذين آمنوا ويتخذَ منهم شهداء، وليمُحِّص الله الذين آمنوا، ويمحَق الكافرين.

فهذه الشدة البالغة قد كشفت ما تطويه نفوسٌ طالما تطاولت وأظهرت الإيمان وهى تُبطِنُ الكفر.

لقد أنطقتها الشدَّةُ، وأظهرت حقيقتَها ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾[1].

فهؤلاء قد كانوا من الذين ظنُّوا بالله ظَنَّ السَّوْء، فكان قولُهم في مواجهة هذا الابتلاء هو الكُفر الصريح ﴿**مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾ أي: أباطيل وأكاذيب وأماني من الخداع والتغرير.

وهكذا تكشف الشدائدُ عن معادن الناس وما تنطوي عليه الضمائر، وما تخفيه الصدور.

ولا يقف الأمر عند هذا الحَدِّ، بل نرى طائفةً من أهل النفاق تُجَاوِز هذا إلى العمل - في تيئيس النفوس وزعزعه الإيمان - فينادون في الناس بهذا النداء:

﴿**وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً**﴾[2].

يا أهل يثرب: يالله!! عودةٌ إلى الجاهلية، ونداءٌ يُغرى بالردَّة إلى الشرك والكُفر، وانسلاخٌ من الاسم الذي اتخذته المدينة في ظلِّ الإسلام.

---

(١) الأحزاب: ١٢.

(٢) الأحزاب: ١٣.

وكأن هذه الطائفة من أهل النفاق تُعين - بما تفعل - الطوائفَ المتعددة التي أحاطت بالمدينة وتآمرت عليها.

ولم تكتف بذلك هذه الطائفةُ، بل منهم من استجاب - فوراً - للرجوع دون استئذان، دون مراجعة للنفس أو رجوع للنبي ﷺ.

ومنهم من أراد أن يُدارى نفاقَه، ويستُر ضَعْفَ إيمانه بعُذرٍ كاذب يعتذر به، وهو أن بيته مُهَدَّد بمن يعتدي عليه ويهتك سِتْرَه ﴿**إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ**﴾ وما أسرع ما جاء التكذيب لهذه القولة ﴿**وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ**﴾.

وما يجرى على بيوتهم يجرى على بيوت المسلمين، فلو دخل المشركون المدينة لَمَا استباحوا بُيوت هؤلاء المنافقين فحسب، بل إنهم يستبيحون بيوت المسلمين وأهل النفاق.

ما قالوا ذلك وهم يريدون أنفسهم فحسب، بل هو قولُ فاجر يُراد به تدمير التماسك والثبات في مواجهه الكُفْر المتآمر والجحود المتطاول.

فإن هؤلاء المنافقين على استعداد أن يستجيبوا لدواعي الفتنة التي يلوذون بها؛ فراراً من خَطَر يخافونه ولحُوقاً بأمن يتوهمونه.

مع أنهم - في حقيقتهم - طلابُ منافع حين أظهروا إسلامهم، طلابُ منافع في تبدِّل مواقفهم.

﴿**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً**﴾.

إن هؤلاء المنافقين - بما جُبِلُوا عليه من حرْصهم على حياة أي حياة، دون حرْص على حرمات بيوتهم ﴿**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً**﴾.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ بالبناء للمجهول دون بيان للداخل على بيوتهم، فإنهم - لحرصهم على حياتهم - يُسلمون بيوتَهم لأي داخل عليهم فراراً بأنفسهم ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾.

وهكذا نرى أن من يُفرِّط في أيِّ حُرمة من الحُرمات، نراه على استعداد للتفريط فيها جميعاً؛ فراراً بحياته التي لا تدوم، فلا يحفظ وُدّاً، ولا يحترم عهداً وكم رأيناهم يُعلنون عن أنفسهم أنهم أهلُ ثبات ووفاء، وأهل طاعة وجهاد!! ولكن.. جزى الله الشَّدائدَ كُلَّ خَيْر.

فكفانا أن نرى من آثارها هذا الغُثاء الذي توارَى مع سكون الماء، فلم يلبث طويلاً عندما تحركت الأمواج، بل أُلقِيَ به ليذُوبَ متلاشياً، دون نفع أو بقاء

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾[1].

فيَالخَيْبَةِ مَنْ يركَنُ إليهم، أو يثق في عهدهم، أو يُصغي لقولهم.

يَالخَيْبَته وخَيْبَتهم إن هو ركن إليهم رُكُون من يرى فيهم رجولةً أو نُبلاً أو وفاءً.

إن المنافع تصرفهم، وتجعل منهم مُسْخَةً بشرية لا وَزْنَ لها ولا بقاء، مع أن ما رغبوا فيه لن يدوم، وما طلبوه من حياة لا تطول، فلن ينفعهم ما رغبوه أو طلبوه، ولن يُنقذهم من الموت فرارٌ منه؛ فالموت سيُدركهم ولو كانوا في بُروج مشيدة.

ولو أُتيحت لهم منفعةٌ عاجلةٌ يتوهمونها، تحقيقاً لما يُؤثرونه ويرغبونه، فلن يطول أمَدُ هذه المنفعة، بل ستعصف بها الأيامُ، وتبقى المساءلة على العهود، دون فرار من مَقْدُور ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[2].

فهذا الفرار على أيِّ لَوْن كان إلى أين ينتهي به المسير؟

---

(١) الأحزاب: ١٥.

(٢) الأحزاب: ١٦.

إنه مُنْتَهٍ إلى الموت، إن لم يكن اليوم فغدًا أو بعد غدٍ.

إنه أَمْرٌ آتٍ لا ريب فيه، وحقيقةٌ واقعةٌ لا مَفَرَّ منها.

ومَن تدبَّر هذه الحقيقة لزم الحق والصِّدْق، وآثر الثبات في كُلِّ حال على مكارم الأخلاق.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾(١).

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾(٢).

والموت على أيِّ صورة هو الموت، ولكن شتَّان ما بين موت وموت.. شتان ما بينهما عند من يقف عند الدوافع والعواقب، فلا يرضى أن يُباع لغير خَالقه، ولا يمكن أن يعيش في دنياه مُنفَصلاً عن اليقين بأخراه، فإن ذلك يُودي بالدنيا والآخرة جميعاً، وذلك هو الخسران المبين.

فَلِمَ الفرارُ من جهاد وَجَبَ؟

لِمَ الركونُ لهَوى النفس بعيداً عن الاستجابة للحق؟

وَمَن استبَدَّ به الهَوى عَبَدَ الهَوَى ومَن استجابَ لمَنْطِق الحق اهتدى

وهذا نداء الله للمؤمنين ليكونوا في وفائهم لله صادقين، واستجابتهم للحق مُلَبِّين.

لا يغيبون في نُصْرة مظلوم أو رَدْع ظالم، بل هم في جميع الأحوال للحقِّ والعدل ناصرون؛ استجابة لما قاله الرسول الكريم ﷺ «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَرَأَيْتَ إن كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»(٣).

---

(١) الجمعة: ٨.
(٢) النساء: ٧٨.
(٣) البخاري - كتاب الإكراه، حديث رقم ٦٤٣٨.

فالإنسان على هذا يكون مجاهداً مُدركاً لحكمة خَلْقه وغاية وجوده.

ينْصُرُ المظلومَ ولو كان من غير أهله، ويأخذ على يد الظالم ولو كان من أهله وحزبه.

عندئذ تستقيم الحياةُ للناس، ولا يستبدُّ بهم ظالمٌ أو متكبرٌ.

وبذلك يتحقق الأمنُ بلا ادِّعاء، ويقوم الناس بالقسط دون احتيال أو استبداد

وتلك أكرم تجارة يُدْعَى إليها المؤمنون الصادقون

وذاك أعظم رِبْح يتحقق معه الفوزُ العظيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

فعَلامَ الفرارُ وتلك هي العواقب والنتائج لمَنْ أحْسَنَ التدبُّر وسلَك الطريق، طريق الاستقامة كما أمر الله، وعرف ما كرَّمه الله به، فلم يسلك سبيلاً إلا سبيل الوفاء له والرِّضَى عنه؟!

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(٢).

لا وجه يفِرُّ إليه أولئك الفارُّون من قضاء الله فيهم، ولا عصمة لهم إلا بصِدْق وفاءٍ، وإخلاصِ قَصْد، وحُسْن استجابة لله وللرسول، فتلك هي الحياة

---

(١) الصف: ١٠ - ١٣ .

(٢) الأحزاب: ١٧.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١).

إنك لترى عمل المنافقين في صفوف المسلمين وإضعافهم مُمْتَدّ ومُتَّصل، طالما يَرَوْنَ أن الحصار قائمٌ والخَطَرَ واقعٌ

ولا تكاد تطَّلع منهم على رؤوس مرفوعة برجائها في الله، ونفوسٍ تقيَّة تخشاه، ولا تخشى أحدًا سُواه.

ولو وقفنا عند كلمة واحدة لَرَأيناهَا جامعةً لما غُيِّبَ عنهم، دافعةً لزيادة الثقة في نَصْر الله، مانعةً من الوقوع فيما سقط فيه المنافقون والذين في قلوبهم مرض.

وتلك هي الكلمة ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾.

قَدْ يَعْلَمُ على التحقيق، إنه يعلم وهى كلمة كافية في إخبار المؤمنين بأنهم في حِمَى الله، وأن أيَّ تدبير سيئ - من أهل الشرك والنفاق - قد أُحيط به.

فليس الإخبار بعلم الله بهؤلاء مجرد إخبارٍ لا تُعرَف دلالته ولا يُحيط به من تدبَّر حكمته وغايتَه، بل هو إخبار بما يقع بهم، وبما ينتهي إليه أمرُهم؛ لأنه أخبارٌ بعلم مَنْ يملك كُلَّ شئ، ولا يَخْفَي عليه من الأمر أيُّ شئ.

فإن موسى عليه السلام - ومعه أخوه - وقد كُلِّفَا أن يذهبا إلى فرعون ليُبَلِّغَاه رسالةَ الله ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾(٢).

وكان موسى عليه السلام يحتاط لكُلِّ شئ ليؤدى ما أُمِرَ به كما يجب أن يكون، فقال مجيبًا لخالقه - جَلَّ وعَلا - راغباً في نُصْرته، قال عن نفسه وعن أخيه هارون، وقد قال الله لهما ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا

(١) الأنفال: ٢٤.
(٢) طه: ٢٤.

لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(١).

فكان هذا القول الدَّالُ على علِم الله بما يقع معهما كافيًا في يقين موسى وهارون أنَّ فرعون لن يستطيع - ولو جَمَعَ مع قوَّته قوةَ من في الأرض جميعاً - لن يستطيع أن ينالَ منهما فكلمة **﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾** من قِبَلِ الله يُدرك دَلالتَها الأتقياء الذين يفقهون ويعلمون وهنا - أيضاً - لا يغيب عن المؤمنين الذين يسمعون إخبار الله عن المنافقين بقوله (قد يعلمُ) إنه إخبارٌ بأن هؤلاء الذين يخبر الله عن علمه بهم ويعلمهم، يفيد أنهم يؤخَذون بأعمالهم، وليكن عملُهم - في خطورته - ما يكون، فلن يكون تدبيرهم - في استدعاء غيرهم أن يكونوا مثلهم في التعويق - إلا وبَالاً عليهم وفَضْحًا لأمرهم.

ويكفي في الإخبار عن النتائج قولُ الله **﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾**.

فإن ريح الفوز عندما تُرْسَل من قبَل الله **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾** ستُغير مواقف هؤلاء، ولكن الإخبار بها في القرآن يُعَرِّف الناس - على مَرِّ الزمان - أن لا خفاء ولا مراء **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾**(٢).

فلنقرأ عن كُلِّ ما فعلوه، ولنَسْتَحْضِر العاقبة؛ لنقف من ذلك على النتائج والعواقب التي تُحسُّ - بتدبرها والعمل بها - المقدمات قبل أن تقع العواقب، وتطيب الروابط بين الخَلْق - دون كَيْد - لتطيب النتائج وتلك عظتنا من قصة غزوة الأحزاب التي وقعت في المدينة الطاهرة المُطَهَّرَة، والتي نراها كما أخبر الرسولُ ﷺ تنفي خَبَثَهَا.

---

(١) طه: ٤٣ - ٤٦.

(٢) آل عمران: ٥.

لقد حبط كُلَّ عمل لأهل النفاق، وبطل كُلَّ سعى لمن كان مع الأحزاب، وبَقِيَ الحديثُ عنهم محفُوظاً في آيات ما بقيت الأرضُ والسماوات ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾(١).

فأهل النفاق هذا حالُهم وذاك حديثُ القرآن عنهم، ولا تغيب دلالة ما وقع منهم وما هم عليه مما فعلوه أو أضمروه ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً**﴾(٢).

والمُعَوِّقُون: هم الذين يُمسكون غيرَهم عن الخروج مع المؤمنين إلى القتال بدءاً، بعد أن فعلوا هذا بأنفسهم أولاً، فهم لم يخرجوا إلى القتال، ثُمَّ ثبَّطُوا غيرَهم، وزيَّنوا لهم القعود، فهذا دأبُهم إن خرجوا أو لم يخرجوا، وذاك ما أخبر الله به عنهم، وهو شئ من مواقفهم في بعض المواقع، لكنها صفاتٌ قائمةٌ فيهم ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾(٣).

ومما يُلفت النَّظَر في حديث القرآن عن المنافقين، أنه حديثٌ ذو طَابَع خاص، تطول آياتُه وهى تكشف عن أعمق ما تُخفيه نفوسُهم، فترى الحديث عن المؤمنين الصادقين تكفي فيه كلمات، وكذلك الحديث عن الكافرين

(١) الأنفال: ٤.
(٢) الأحزاب: ١٨ - ٢٠.
(٣) التوبة: ٤٦، ٤٧.

الجاحدين، ولكن الحديث عن المنافقين في أيّة سورة يطُول، ويعطى من الدلالات ما لا يحتاج إلى تفسير أو بيان.

ترى ذلك في سورة البقرة من بدايتها، كما ترى ذلك في هذه السورة، سورة الأحزاب، فقد بدأ الحديث عنهم من هذه الآية ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ إلى الآية ٢٠، وختامها: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

تسعُ آيات متتابعات ليست مُوجَزه أو قصيرة، بل هي في السورة من أطول الآيات.

واقرأ - مثلاً - مرَّةً أُخرى ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾.

والعَجَب عندما ننظر إلى العواقب، نرى كُلَّ مَن استعان بهم أو رَكَنَ إليهم خُذِلُوا، ولم يلق من صُحبتهم إلا الخسران والبوار.

فعلوا ذلك فيما نحن فيه مع «قينقاع» وقد عرفنا ما فعلوه وما انتهى إليه حال هذا الفريق، وحالهم عندما ظهرت النتائج واستبانت العواقب.

وفعلوا أشد من ذلك مع «بنى النَّضير» وقد قرأنا حديث القرآن عنهم في سورة الحشر من بداية قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

إلى قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وما حدث مع «بنى قُرَيْظَة» كان كذلك أشد، وسنرى عاقبه بنى قُرَيْظَة، بل عاقبة الأحزاب في آيات سورة الأحزاب؛ لنعرف أن سُنَّة الله مع أهل النفاق ومَن والوهم أنهم لا يُنصَرون.

فبئس حال من اتخذ من دون وليًّا، بئس ما يكونون عليه في دنياهم، وبئس ما يصيرون إليه في أخراهم..

إنهم أولياء الشيطان وتلك عاقبه الشيطان ومن والاه ﴿**فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾(١).

ومن فضل الله ورحمته أن نرى صفات من يحبُّهم الله ومن يبغضُهم في حديث القرآن؛ ليعرف الناس من أنفسهم ما هم عليه عندما يختارون أو يرغبون.

وآيات القرآن الكريم تُرينَا العاقبةَ في كُلِّ أمر، وتذكر النتائج لكُلِّ فعل، وتخبرنا أن الإنسان - الذي ينْشُدُ الفوزَ والنجاةَ - عليه أن يُصلح من قَصْده وعمله، مع استحضار أن كُلَّ شئ من عمله سيكون حاضرًا في عاقبته

﴿**وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾(٢).

*****

الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ:

والآن.. تعالوا بنا لنقرا - ونحن ما زلنا مع حديث القرآن - عن غزوة الأحزاب وبنى قُرَيْظَة قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾(٣).

---

(١) الحشر: ١٧.

(٢) الكهف: ٤٩.

(٣) الأحزاب: ٢١.

والأسوة في رسول الله ﷺ: هي التأسي به في موقفه من أمر ربِّه وامتثاله له، وجهاده في سبيل الله.

وفي وَصْف الأسوة بأنها أسوة حسنة إشارة إلى أن هناك أسوة سيئة يقوم على رأسها كبير من كبار المنافقين، يدعو إلى النكوص على الأعقاب، والفرار من مواجهة الأحزاب.

والدَّعوة هنا عامة للمؤمنين أن يتأسُّوْا برسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وأن يكونوا من ورائه جنداً مجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله

فذاك هو طريق الفوز والخير والنجاة، لا ييسره الله إلا لمن كان يؤمن بالله ويرجو رحمته، وكان ذكرُ الله ملءَ فيه، حتَّى يجد من هذا الذِّكر ما يستحضر به - دائماً - عظمةَ الله وفضلَه وإحسانَه، فيصبر على البلاء، ويَصْدُق عند اللقاء، وهو يذكر الله كثيراً ولا ينساه.

آيةٌ واحدةٌ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[1].

آيةٌ تُرَى دلالتها كما تُرى الشمسُ في وَضَح النهار، ويُعرَف من تأسى به - دُون تَكَلُّف - كما يُعرَف أثر الشمس في جنات وأزهار.

فسُبحَان من أرسله رحمةً للعالمين، وخاطبه خطاباً مباشراً فيه تكريم له أيُّ تكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٤٧﴾ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[2].

فلنستمع إلى حديث القرآن عمَّن تأسى به واهتدى بهُداه:

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) الأحزاب: ٤٥ - ٤٨.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

هذه صورة من صور التأسي برسول الله ﷺ، يراها من ينظر إلى المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

فهؤلاء المؤمنون - حين رَأَوْا الأحزاب - لم يهنوا ولم يضعفوا، ولم ترهبهم كثرةُ العدو، ولم يُفزعهم الموتُ المُطِلُّ عليهم من كُلِّ مكان، فالموت - في هذا الموطن - هو أمنيتهم التي كانوا يتمنَّوْنَها على الله، ويقدمونها ثمنًا لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته، ولهذا فإنهم لَمَّا رَأَوْا الأحزابَ، رأوا فيهم تحقيق ما وعدهم الله به ورسوله من الابتلاء.

والمؤمنون - دائماً - على طريق الجهاد، فهم في رباط لحماية دين الله، ودَفْع ما يَرمى به أعداء الله من تَسَلُّط واعتداء.

وما زادهم ما رَأَوْه من الأحزاب وكثرة عددهم، ما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً..

إيمانا بالله، وتصديقاً لوعده، وتسليما بما يقضى به الله بينهم وبين أعدائهم.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ بيانٌ يُغرى بالتأسي والاقتداء؛ فإن هؤلاء الذين يُخبِرُ الله عنهم قد سلموا من النفاق، وتخلَّصُوا من كذب السُّمْعة والرِّياء، وأخلصوا قَصْدَهم لله.

ففي قوله تعالى ﴿رِجَالٌ﴾ إشارةٌ إلى ما كمَّلهم الله به، فكانوا رجالاً حقاً وصدقاً، أوفياء شرفاء، ترى فيهم - مع نُبْل القَصْد - طهارةَ الإيمان وشرفَ اليقين.

---

(١) الأحزاب: ٢٢، ٢٣.

وكفاهم أن يكونوا - بصفاتهم وأعمالهم - جنوداً للحق والعدل، قد تحررت عقولُهم من الضلالات، وسلمت نفوسُهم من الأهواء والشهوات، وصَفَتْ أرواحُهم، فلم تخدعهم زينةُ حياة أو متاع فإن في تنكير كلمة ﴿رِجَالٌ﴾ ما يدُلُّ على عِظَم مكانتهم في ميزان الله، فإن في التنكير معنى التفخيم والتعظيم، وهذه الكلمة ﴿رِجَالٌ﴾ إنما تذكر مواطن لها شرفها وقدرها في مواطن يجب أن تُعرَف ولا تغيب.

ففي سورة النُّور نقرأ قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾[1].

وفي سورة التوبة نقرأ قوله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[2].

وهؤلاء الرجال هم الذين رأينا منهم من رأينا في مواجهة الأحزاب وهم يقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾: المراد به انقضاء الأجل، فإن النَّحْبَ هو النَّذْر المحكوم بوجوبه، يُقال: فُلانٌ قضى نَحْبَه، أي وفَّى بنَذْره وهو على إيمان وثيق بربه.

وفي موقف الجهاد ما يدلُّ على ذلك، فإن المجاهد في سبيل الله قد وفَّى بما نَذَره الله وعاهدَ الله عليه.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ أي: ينتظر قضاءَ الله ونَحْبَه، موتاً أو استشهاداً في سبيل الله، فهو على تَرقُّب وانتظار لليوم الذي تُتاح له الفُرصة للوفاء بعهده ونذره.

---

(١) النور: ٣٦، ٣٧ .
(٢) التوبة: ١٠٨.

وفي كلمة ﴿يَنْتَظِرُ﴾ إشارةٌ إلى أن المؤمن الصادق ينتظر لقاء رَبِّه وهو في شَوْق إلى هذا اللقاء.. اللهم اجعل خيرَ أيَّامنا يوم نلقاك..

﴿ومَا بدَّلُوا تبديلاً﴾ كهؤلاء الذين يُبدلون موقفَهم توهماً لمنفعة أو خوفاً من ضرر يَلحق بهم.

لكن هؤلاء المؤمنين يُخبر الله عنهم وعن إيمانهم به، أنهم ثابتون، وأن يقينَهم بلقاء الله لم يزايل مكانَه من قلوبهم لحظةً، ولم ينحرف عن موضعه أيَّ انحراف فهُم على حال واحدة من أمر ربهم، ومن ثقتهم بما وعدهم الله به على يد رسوله ﷺ وهذا الثبات من أَلْزَم اللوازم للفوز والنجاة، وهو السبيل للرجاء في حُسْن الجزاء.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ وهذه اللام في قوله ﴿لِيَجْزِيَ﴾ هي لام العاقبة لقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ أي: أنهم فعلوا ذلك رجاءَ أن تكون تلك عاقبتُهم

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ في إيمانهم وفي وفائهم بعهودهم، فما أجَلَّ الصدق مع الله وما أعظمَه.

وجميل أن يُترَك تحديدُ ما يُجزيهم الله به، فهو جزاءٌ من الله لا يحتاج إلى تحديد أو بيان، ولا يمكن حصرُه في حساب، أو يُطلَب له برهان، فما يُجزى المحسنون إلا إحساناً.

وكثيراً ما نرى القرآن الكريم يُجمل الجزاءَ لمثل هؤلاء؛ تعظيماً لشأنه وتفخيماً لقدره.

كما قال الله عز وجل: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

---

(١) السجدة: ١٧.

لنعرف منه عِظَمَ الجزاء، فلا يضنُّ مؤمنٌ في الجود بنفسه، أو يتوقف عن الوفاء لربِّه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(١).

أطماع في رحمة الله وفي مغفرته للعصاة والمذنبين أيَّاً ما كانوا فيه من ضلال، فرحمة الله واسعة، ومغفرته عامة لمن طمع في رحمته ومغفرته.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾(٢).

وهؤلاء قد غفلوا - وهم يصنعون ما يصنعون - عن أن للكون ربَّاً قد أحاط بكُلِّ شيء علمًا

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾(٣).

ولن يفلت أحد من حساب أو جزاء..

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾(٤).

وإذن فأين الإنسانية لكي تتدبَّر هذا النداء من خالقها، وهى ترى - بنفسها - بوادرَ زلازل وتتابُع نَكَبَات على الأرض التي تحملهم، وهذا نداؤه لهم جميعاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾(٥).

إن الزلازل التي تقع أمام أعينهم ليست شيئاً بالنسبة لما يُحذّرهم الله منه، ويَعظُهم أن يتقوه بالاستقامة والخشية من خالقهم.

---

(١) الأحزاب: ٢٤.
(٢) طه: ٨٢.
(٣) يونس: ٦١.
(٤) إبراهيم: ٤٢.
(٥) الحج: ١.

وإنني لأسأَلُ نفسي.. لماذا حَفِظَ اللهُ هذه الأحداثَ الكبار التي وقعت من قبل وأنزل فيها قرآنًا يُرى الناسَ هذه الأحداثَ وعواقبَها في يُسْرٍ، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١).

وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً:

وبعد.. فما الذي جنَاهُ أولئك الذين تحالفوا وتآمروا، واجمعوا أمرَهم على إطفاء نُور الله؟

وما الذي جرى لأولئك الذين نَقضوا العهد وآثروا الغدر؟

لقد عرفنا ما كان من تدبير الله لهؤلاء وأولئك فيما ذكرناه من أمرهم، فلنستمع إلى آيتين في ختام ما نزل في شأن الأحزاب ومَن ظاهرهم، فإن فيهما ما يغنى في معرفة العواقب والنتائج التي يُوقَظ بها الناس إلى يوم الدين، نتائج الصدق والإيمان، وعواقب الجُحود والكُفران

جيشٌ من عشره آلاف مقاتل حُوصرت به مدينةُ الإيمان، يسُوقهم من يُسَوِّلُ لهم ويُغريهم بما تهواه نفوسُهم

ولم تكن قد عُرفت - من بعد - أسلحةُ النَّذَالة التي يملكها من يملكها، ويتيه بإحرازها من يَتيه.

وأسلحة الندالة هي التي تراها تقترف من الأعمال، وتحقق من الخراب ما لا يُعْفَي منه رضيعٌ أو شيخٌ كبيرٌ، وما لا يبقى معه حَجَرٌ ولا شجرٌ يكون به إيواء أو إطعام.

والفخرُ عند من يستعملون هذه الأسلحة، وهى أسلحة الدمار الشامل - كما يُسَمُّونَها - أنهم قانعون بالتهديد والتخويف والهيمنة والاستبداد والإملاء على الخَلْق، دون نَظَرٍ لعاقبةٍ أو جزاءٍ.

---

(١) القمر: ١٧.

لقد جاءت قريش ومن حالفها، فلم تُرَد بأسلحة يملكها أهل طيبة، ولم تستعنْ بمن يملك - في دنيانا - السِّلاح، وإنما استعانت بمَن لا يُستَعانُ إلا به ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

فإذا بريح تؤمَر فتردَّ أهل الكفر بأمر ربِّها، تردُّهم بغيظهم خائبين ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾.

فهذا الغيظ هو محصلتُهم من هذه الغزوة التي كانوا يُمَنُّونَ أنفسَهم فيها بالنَّصْر والغنيمة.

لم يعودوا إلا بالخزي والذلة والعار.

ورأينا كثيراً منهم - من بعد - من استنَارت حياتُه بنُور الإسلام.

وفي قوله: ﴿لم ينَالُوا خيراً﴾ تأكيدٌ لما أصاب الأحزابَ من خزي وعار، فإن هزيمتهم كانت بـ (ريح) أرسله الله عليهم.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: كفاهم القتال من لا يملك أحدٌ مع سلطانه سلطانٌ، وهو الله.

﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ وهذا ما يجب أن يُستَحْضَرَ دائماً؛ ليكون ذلك هو الأصل الأصيل في الأخذ بالأسباب؛ لأن النَّصْرَ الذي يُطلَب من الله، لا يُطْلَبُ إلا بأسباب، ولا يكون إلا بطاعته، فقد يتحقَّق النَّصْرُ أحياناً، أو يأتيَ الخيرُ بمجرد صِدْق القلوب والعزم على القيام بما أوجبه الله وأَمَرَ به.

فإذا علم الله ذلك ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] جاءت النتائج مُحقِّقَة لما يُرْجَى من فوز وتأييد.

---

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

وَقَعَ ذلك في صُلح الحُدَيْبِيَة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(١).

وأخبر أسارى بَدْر - وهم لم يُفَكُّ أسْرهم بعد - وأمرَ الرسول ﷺ أن يخاطبهم بما أمره الله به: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

وتلك هي البدايات لما يُرجَى من خير في عاجل أو آجل، وذاك وعْدُ الله عز وجل الذي يخاطب به عبادَه المؤمنين ليكونوا على ثقة بنَصْر الله إذا هم نصروه في أنفسهم، بتغليب أمره على أهوائهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٣).

ولكن بماذا أخبر الله عن أولئك الذين ظاهروا الباطل، وآثروا الغدر، واستخفُّوا بالعهد؟

أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾(٤).

وهم يهود المدينة من بنى قُرَيْظَة وبنى النَّضير، الذين ظاهروا المشركين، أي كانوا ظهراً لهم في هذا الكَيْد الذي أرادوه بالنبي ﷺ والمسلمين.

فهؤلاء اليهود أنزلهم الله من صياصيهم، وأزالهم من أماكنهم التي تحصَّنوا فيها ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: ملأ قلوبَهم فَزعًا ورُعْبًا، وأراهُم أنهم قد أصبحوا في يد النبي والمسلمين، بعد أن انقلب المشركون مدحورين مذمومين.

---

(١) الفتح: ١٨ .
(٢) الأنفال: ٧٠.
(٣) محمد: ٧.
(٤) الأحزاب: ٢٦.

«والصياصي» هي الحصون التي يتحصَّن فيها اليهودُ بالمدينة، وكانت حُصونًا حصينة يعيش فيها هؤلاء القوم، ويجدون - في ظلِّها - الحمايةَ من كل عدو يريدهم.

فهل أغنت عنهم شيئاً، أو حالت بينهم وبين إنزالهم منها، ليجدوا جزاء غدرهم؟

إن ذاك هو ما انتهى إليه أمرهم في هذه الغزوة، فقد مكَّن الله منهم، وأنزلهم على حُكم النبي فيهم، فقَتَل من قَتَل، وأَسَر من أَسَر

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[1].

وهذا إخبار من الله بما كان لله من نعمة على المسلمين بعد أن أجلوا من المدينة، فقد ورث المسلمون ما كان لهم من أرض وديار وأموال..

وهذا فضل من الله على المؤمنين يجب أن يُذكر دائما ولا يُنسَى، حتَّى يكون لأهل الإيمان - دائماً - تبصرةً وذكرى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ إشارة إلى ما سوف يُورِّث الله المسلمين بعد هذا من أرض لم يطئوها من قبل، وقد رأى الناس مصداق ذلك في واقع، ورأى الناس - من بعد - ما أخبر به وهم في حفر الخندق، مما رواه ابن إسحاق حيث قال:

وحُدثت عن سلمان الفارسي أنه قال: ضَرَبتُ في ناحية فغَلُظَت علىَّ صخرةٌ، ورسول الله ﷺ قريب منى، فلما رآني أضرب، ورأى شدَّة المكان علىَّ، نزل فأخذ المِعْوَل من يدي، فضرب به ضربة لمَعَت تحت المعول بَرْقَةٌ، قال: ثُمَّ

(١) الأحزاب: ٢٦، ٢٧.

ضرب به ضربةً أخرى، فلمعت تحته بَرْقَةٌ أخرى، قال: ثُمَّ ضرب به الثالثة فلمعت تحته بَرْقَةٌ أخرى.

قال: قلت: بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت لَمَعَ تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أَوَقَدْ رأيتَ ذلك يا سلمان؟

قال: قلت: نعم.

قال: أمَّا الأولى فإن الله فتح علىَّ بها اليَمَن.

وأما الثانية: فإن الله فتح علىَّ بها الشام والمغرب.

وأما الثالثة: فإن الله فتح علىَّ بها المشرق.

وقد ذكرنا ما رُوى عن أبى هريرة حين فُتحت الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده حيث قال: «افتتحوا ما بدَا لكم، فوالذي نفس أبى هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله - سبحانه - محمداً ﷺ مفاتيحَها قبل ذلك»

وكم من بلاد فُتحت وأرضٍ واسعةٍ شاسعةٍ تحقَّق بها ما وعد الله به من ميراث المسلمين لها.

وذاك ما رواه مسلم عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ... الحديث»[1].

قال القرطبي: «هذا الخبر وُجِدَ مخبره كما قال ﷺ، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن مُلْكَ أُمَّته اتَّسع إلى أن بلغ أقصى طنجة[2] الذي هو منتهى

(١) مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ٥١٤٤.

(٢) طنجة: مدينة على ساحل بحر المغرب.

عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد السِّند والهند».

وقولُه «وأُعطيت الكَنْزَين الأحمرَ والأبيضَ» قال القرطبي: يعنى به كنزَ كسرى وهو مَلك الفرس، وكَنْزَ قَيْصَر وهو مَلك الروم، وقصورهما وبلادهما، وقد قال «وَلَتُقْسَمَنَّ كُنُوزُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...»(١).

ومن الخير - وقد ذكرنا ذلك - أن نذكر تتمه الحديث حتَّى نستحضرَ دلالته فيما يقع فينا، وأنه من أنفسنا وليس من كَيْد عدونا، حيث قال الرسول ﷺ كما رواه ثوبان رضي الله عنه:

«... وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

فمن أين يأتي الخطر على المسلمين؟

هل يأتيهم من كَيْد عدوهم؟ أم يأتيهم من معاصيهم ومخالفتهم لخالقهم؟

ذاك ما يجب أن نتدبَّره من حديث القرآن الكريم ونحن نستمسك به ونهتدي بهُداه

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢).

*****

(١) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٨٠٣.
(٢) الأنفال: ٤٦.